



Contents lists available at www.iusrj.org
 International Uni-Scientific Research Journal
 Journal homepage: www.iusrj.org



History and Geography.

Fez and Meknes: Historical Significance and Socio-Economic Prosperity in Urban Dynamics

فاس ومكناس: الأهمية التاريخية والازدهار الاجتماعي الاقتصادي في الديناميات الحضرية

Khalid EL ALAOUI, Jaoid EL BORDO, Hamid KHATRANI - خالد العلوي، جواد البوردو، حميد ختراني

Article Info

Article history:

Received: Jul 13, 2024

Accepted: Jul 31, 2024

doi:10.59271/s45486.024.1930.3

Available

Vol. 5 (3) 14-18

Aug 14, 2024

Abstract

This study examines the historical significance and urban development of Fez and Meknes, two cities with roots tracing back to the Idrisi dynasty and the reign of Moulay Ismail of Morocco. Historically, both cities have experienced significant economic, scientific, and cultural prosperity, which is still evident through their notable urban landmarks.

This historical background has been instrumental in shaping the demographic and economic dynamics of Fez and Meknes, enabling them to exert influence beyond their boundaries into the surrounding southern and southeastern regions. The findings indicate that this expansion has resulted in urban growth that exceeds traditional city limits, leading to the development of neighboring communes.

As a result, urban planners and developers are increasingly focusing on these suburban areas, recognizing their potential for accommodating new projects due to the availability of extensive land and space. This research highlights the interplay between historical context and contemporary urbanization in shaping the future of these cities.

Keywords:

المعالم العمرانية، مدينتي فاس ومكناس،
 المجال الضاحوي، التوسع المجالي،
 المعطى التاريخي

urban landmarks, the two cities
 of Fez and Meknes, suburban
 space, spatial expansion, the
 historical aspect

© 2024 IUSRJs'. OpenAccess

إلى اليوم من خلال العديد من القصبات التي شيدها المولى إسماعيل (1672م -
 1727م) ببوفكران وأكوراي وغيرها من المعالم والمآثر التاريخية التي تميز المجال
 الضاحوي، عكس ضاحية مدينة فاس التي تتميز بسيادة السكن المنفرد في غالبيتها
 باستثناء بعض المراكز الضاحوية البارزة كعين الشكاك والسخينات.

Corresponding author

Khalid El-ALAOUI

PhD in Geography, Hassan I University, Morocco.

E-mail address kh.elalaoui@yahoo.fr

Jaoid EL BORDO

PhD in Geography, Hassan II University in Casablanca

Specialization in human geography.

Hamid KHATRANI

PhD in Geography, Hassan I University, Morocco.

E-mail address hamid.khatrani23@gmail.com

المقدمة:

يلعب المعطى التاريخي دوراً أساسياً في تعمير المدينتين
 تواجه الباحثين عدة صعوبات في دراسة تاريخ المدن العتيقة والضاحية، لعدم وجود
 أبحاث دقيقة توثق للاستقرار البشري والتحويلات المجالية، فالاستقرار البشري
 بالمجال الضاحوي لازال في حاجة إلى أبحاث تاريخية، اجتماعية واقتصادية...، تلم
 بالأوضاع التي كانت سائدة، ليصبح بالإمكان مقارنتها بالفترة الحالية ورصد التطور
 الحاصل على جميع الأصعدة.

تفيد الأبحاث التاريخية بأهمية التحويلات السوسيومجالية وأهمية التطور الذي شهدته
 الضاحية، حيث تحول المجال من تجمعات بشرية وقبائل رحل، انتقلت للاستقرار
 بضاحيتي مدينتي فاس ومكناس قادمة من الجنوب والجنوب الشرقي إلى مراكز
 حضرية وقروية، و عدة دواوير تميزت بالاستقرار والاستفادة من قربها من المدينة-
 المركز.

يتم التمييز بالضاحية بين السكان الأصليين وبين مهاجرين لمجال هضبة سايس لأنها
 تتوفر على مقومات طبيعية مهمة، وتمتاز بقربها من المدن الكبرى المؤطرة لجهة
 فاس-مكناس.

ترجع أهمية الدينامية العمرانية التي تشهدها ضاحية مدينة مكناس للعامل التاريخي،
 حيث أن محيط المدينة كان يتشكل من تجمعات عمرانية بارزة، آثارها لازالت قائمة

هكذا جعل سلاطين الدولة المنطقة تتكون من موالين ومؤيدين من القبائل لضمان السيطرة على هذا المجال الاستراتيجي.[4]

2. خصائص مجال عيش قبائل سايس خلال القرن 19:

عرفت منطقة سايس توافدا للسكان خلال وقيل القرن 19، حيث استقرت مجموعة من القبائل لاعتبارات متعددة سياسية، اقتصادية واستراتيجية، نظراً للموقع المهم الذي تحظى به في ظل حكم الأسرة العلوية، بقيادة المولى إسماعيل لمدينة مكناس وجعلها عاصمة له، وازدادت أهمية المنطقة باستعادة مدينة فاس لمكانتها التجارية القديمة واندماجها في النظام الرأسمالي العالمي، الأمر الذي شجع على استقطاب اتحادات قبلية كبرى كانت تعيش في الجنوب (آيت ادراسن، آيت ومالو) رغبة منها في الاستفادة من المراعي الخصبة والثروات الطبيعية التي يوفرها مجال سايس، لهذه الأسباب جعلت الدولة من المجالات الخصبة ذات قيمة اقتصادية مهمة كهضبة سايس، غابيتها الأساسية السيطرة عليها والتحكم في القبائل التي تنوطن بها.[5]

يتموقع مجال سايس في وسط المغرب، ممتدا بذلك على مجال جغرافي شاسع تحده من جهة الشمال مقدمة جبال الريف، التي تضم وحدات تضاريسية متباينة فيما بينها، هي من الشرق إلى الغرب، جبل زلاغ، جبل تغات، جبل قنوفة، جبل زرهون، جبل قفص، ومن الغرب بوادي بهت ومن الشرق بوادي سبو ومن الجنوب بهضاب الأطلس المتوسط.[6]

استمت الحدود الفاصلة بين القبائل بالتغير، حسب الظروف السياسية والاقتصادية، حيث يجري تنقل السكان بفعل الجفاف وقلة الموارد بحثاً عن مجال أكثر خصوبة، وفي حالات أخرى يتم ترحيل بعض القبائل من مكانها من قبل المخزن لاعتبارات عسكرية وأمنية، ولهذا نجد بمجال سايس قبائل في أغلبها تابعة للسلطة الحاكمة، وذلك بعد مواجهات بين المخزن والقبائل المعارضة، لتتم السيطرة بالكامل على مجال سايس الذي كان يزخر ولازال بالثروات الطبيعية والموارد الترابية الغنية والمتنوعة، إلى أن أصبح في ذلك الوقت قطباً اقتصادياً وطنياً توافد عليه السكان من شتى المناطق بالمغرب.

3. البدايات الأولى للتشكل العمراني لمدينة مكناس:

يبدو أن القيام ببحث في بداية التشكل العمراني لمدينة مكناس، أمر في غاية الصعوبة، لقلة المصادر والمراجع التي تحدثت عن التحولات الاقتصادية والمجالية، وكذا غياب أبحاث أثرية لمدينة مكناس، كما هو الشأن لبعض المدن المغربية، وبالتالي فالدراسات والأبحاث التي تطرقت لهذا الموضوع تحاول مقارنة وملازمة عناصر المجال ليس إلا.[7]

"تقع مكناس في سهل غني بالثروات الطبيعية، ويمر بالقرب منها نهر صغير، وتحيط بها على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة، تنتج فواكه وخضر، لا سيما السفرجل، والرمان... والحاصل أن الأراضي المحيطة بمكناس خصبة جداً، بها كميات كثيرة من الكتان يباع معظمها في فاس وسلا. والمدينة في داخلها حسنة الترتيب والتنسيق، فيها مساجد جميلة، وثلاث مدارس للطلبة، ونحو عشر حمامات في غاية السعة..."[8]

ينطلق أصل وبداية مكناس كوحدة مجالية من مكناسة الزيتون، بالإحالة إلى القبيلة المؤسسة التي انقسمت إلى قسمين، الأولى يتحدد موطنها الأصلي قرب تازة، في حين أن الثانية انتقلت إلى غرب سايس وجنوب جبل زرهون، فشكلت بذلك قرى حول منابع العيون وبالقرب من المجاري المائية،[9] تتكون هذه المدينة التاريخية من وحدات مجالية متنوعة كانت تدعى "الحواضر" أو الأحياء وكان أشهرها حارات بني موسى وورزيغة وتاورا، ليلعب عددها آنذاك 14 قبل اندثارها وهي: ورزيغة، عوسجة، بنوزياد، بنوتاورة، مدينة القصر، بنو عطوش، بنو برونوس، بنو موسى، بنو مروان، السوق القديمة، بنو شلوش، بنو غفجوم، قرية الأندلس، بنو عبدوس. ظلت هذه القرى والأحياء قائمة تقاوم نكبات وأزمات العصر من فتن وصراعات سياسية، بفعل توالي الدول على الحكم بالمنطقة، حيث شرع عبد المومن بن علي الموحي في تدمير القرى والأحياء المحيطة بمكناس، بمعية قائده أبو حفص الذي حاصر مكناسة وضيق الخناق عليها.[10]

7 جمال حيمر. (2006): مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث. دراسة في التاريخ السياسي والعمراني. مكناس: جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ص 147

8 الحسن بن محمد الوزان الفاسي. (1983): وصف إفريقيا. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. الجزء الأول. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الثانية. ص 214-215

9 جمال حيمر. (2006): المرجع نفسه. ص 147

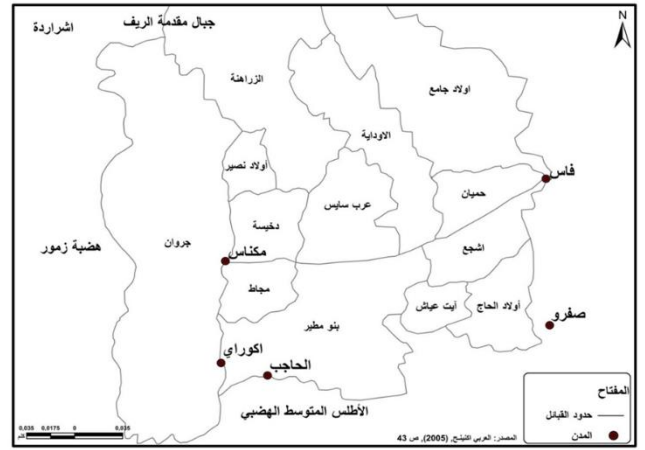
10 جمال حيمر. (2006): المرجع نفسه. ص 148

1. الأصول التاريخية لسكان سايس ومراحل تعميرها للهضبة:

يتناول هذا المحور تاريخ قبائل هضبة سايس خلال القرن 19 (خريطة رقم 1)، وهو محاولة للبحث في القبائل المشكلة للهضبة خلال هذه الفترة، والتحولات التي شهدتها المجال بانتقال القبائل للإستقرار بهذا الموقع الاستراتيجي، الذي كان يضم مدينتين من حجم فاس ومكناس التي كانت تشكل مراكز مهمة، وبالرغم من الأبحاث والدراسات التي أجريت حول تاريخ القبائل والمدن بالمغرب، لازال مجال سايس يعرف نقصاً في كثير من الجوانب، ونخص بالذكر هنا التحولات السوسيومجالية التي شهدتها هذه المنطقة على مر التاريخ، الأمر الذي يدفع بالباحث إلى الإشارة ولو بشكل مقتضب لتاريخ المنطقة، لكون "فضايا الحاضر ومشاكله، وثيقة الصلة بإخفاقات الماضي وتداعياته، الذي نعاني منه اليوم على جميع الأصعدة، هو نتاج تاريخي، ووليد مثبطات الأمس البعيد والقريب".[1]

تنحدر قبائل سايس من أصول مختلفة، أمازيغية وعربية قادمة في أغلبها من الجنوب الشرقي، مما يدل على الارتباط التاريخي الوثيق بين الجنوب الشرقي ومنطقة السايس التي تحتل موقعاً استراتيجياً يربط الغرب بالشرق والشمال بالجنوب، وكانت تشكل مركزاً اقتصادياً مهماً على الصعيد الوطني تنصده العاصمة العلمية فاس، لكن النقل الاقتصادي والتاريخي بشكل عام لم يكن وليد القرن 19، بل قبل ذلك احتلت مدينة مكناس مكانة بارزة في عهد المولى إسماعيل الذي جعل منها عاصمة، أصبح لها تطور في شتى المجالات بالبلاد.[2]

خريطة 1: مواقع وحدود قبائل سايس في القرن التاسع عشر



تنقسم القبائل المشكلة لهضبة سايس إلى مجموعتين، تضم المجموعة الأولى القبائل الأمازيغية (جروان، مجاط، بني مطير، وأيت عياش)، وتتكون المجموعة الثانية من قبائل عربية (دخيسة)، أولاد نصير، عرب سايس، الأوداية وحميان، ثم أشجع وأولاد الحاج.

استقرت هذه القبائل بهضبة سايس قادمة من مناطق متباينة من الغرب، الشرق، والجنوب الشرقي في ظروف وملايسات اقتصادية وسياسية مختلفة،[3] لكن أغلب هذه القبائل قادمة من مناطق نائية تعاني الجفاف وخلافات سياسية سواء بين القبائل أو بين السلطة الحاكمة والقبائل، لترحل بحثاً عن مكان أكثر خصوبة وأكثر أمناً، هذا بالإضافة إلى أن المخزن تدخل في هذا المجال وذلك من خلال تحديد القبائل التي ستشكل هضبة سايس رغبة منه في الحفاظ على الأمن والاستقرار بالمنطقة التي تتوفر على موقع استراتيجي مهم، ووزن اقتصادي مكنها من تحديد موقعها على المستوى الوطني.

جعل المخزن هضبة سايس تتكون من القبائل الموالية والمؤيدة لسلاطين الدولة العلوية، وصد قبائل الأطلس المتوسط التي كانت ترغب في النزول للمراعي الخصبة، فالأوداية يعتبرون أحوال سلاطين العلويين، والدخيسة وأولاد نصير كانوا أول من بايع مولاي محمد الشريف، والشجع وحميان كان لهما تأييد سالف لسلاطين الدولة العلوية، وبنو مطير كانوا يعتبرون جند المخزن منذ عهد المولاي إسماعيل،

1 العربي اكنينج. (2005): انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن التاسع عشر وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية للبادية المغربية، نموذج قبائل هضبة سايس: مطبعة انفو- برانت. ص 5-6.

2 العربي اكنينج. (2005): المرجع نفسه. ص 11.

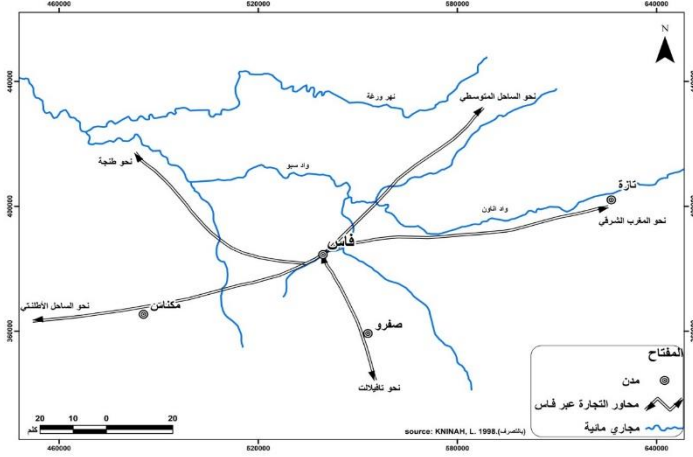
3 العربي اكنينج. (2005): المرجع نفسه. ص 12.

4 العربي اكنينج. (2005): المرجع نفسه. ص 32.

5 العربي اكنينج. (2005): المرجع نفسه. ص 41.

6 العربي اكنينج. (2005): المرجع نفسه. ص 41.

خريطة 2: فاس في ملتقى الطرق

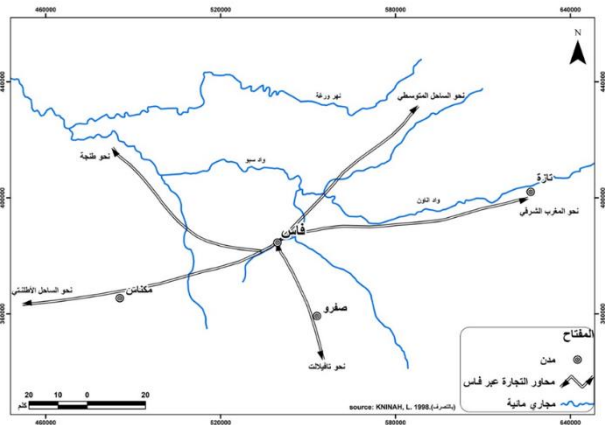


جاء المرابطون، بعد صراع حول السيطرة على مدينة فاس الكبرى، من الصحراء الغربية في منتصف القرن الحادي عشر وانتشروا بالمغرب، وبعدها أسس يوسف ابن تاشفين مراكز سنة 1062/454م، استولى على فاس عام 1068/462-1069م، بعد محاولة فاشلة، قام بتحطيم الأسوار الفاصلة بين عدوتي الأندلس والقرويين (خريطة رقم 3)، داعياً إلى توحيد المدينة ككل، رغم المعارضة التي واجهته من قبل السكان، والتناقض الموجود فيما بينها، وفيما بعد تبين بأن هناك حاجة إلى مركز يوحد العدوتين، فوقع الاختيار على وسط مدينة القرويين، كمركز تاريخي عريق، وبهذا أصبحت فاس مدينة كبرى موحدة وأكثر قوة. [17]

"وعندما مات إدريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية، وهي أقل ضخامة من الأولى وتقع أيضاً على مجرى النهر. ونمت المدينتان مع مرور الزمن حتى لم يعد يفصل بينهما سوى ممر صغير.... لكن لم تمر مائة سنة على تأسيس فاس حتى تكونت أحزاب متباينة... فأصبح لكل واحدة منها أمير، وقامت بينهم حروب كثيرة استمرت مائة عام". [18]

يظهر أن فاس لم تعرف طوال حكم المرابطين اضطرابات خطيرة؛ مما سمح لها بالنمو والتطور بسرعة، لكن عندما حكم الموحدون المغرب تأثرت مدينة فاس كثيراً بضرباتهم، ففي عام 1145/540م حضر عبد المؤمن الموحد لمحاصرة فاس التي تمكن من السيطرة عليها بعد عمليات تخريبية إثر المقاومة التي واجهتهم من طرف المرابطين. عكس ما قام به المرابطون، فالموحدون اتخذوا من مراكز عاصمة لهم، وجعلوا من فاس إحدى القواعد العسكرية المهمة.

خريطة 2: فاس في ملتقى الطرق



بناء على ما تقدمه المصادر الجغرافية حول هذه القرى والأحياء المشكلة لمدينة مكناسة، فإنها كانت على درجة عالية من الرخاء، وما يدل على ذلك هو وفرة المنتوجات والثمار وتنوع المحاصيل وخضرة الأشجار، وفي هذا الإطار تحدث الإدريسي على تاورا قائلاً... "أسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة والنعم والفواكه لا تقضى بها حاجة". [11]

بناء على ما سبق، يتضح أن مكناسة كانت تشكل من تجمعات وتكوينات عمرانية بارزة تدل على تحولات سوسيو مجالية واضحة كان لها دور في تحديد ملامح المجال اليوم، وعلى قدم التعمير وأهميته، حيث أن الأضرار التي لحقت بالمجال بفعل توالي الدول ما فتئت أن تعافت مكناسة منها بعودة الاستقرار والأمن، بعد أن استقل بنو مرين بالمغرب بعد صراع مع الموحدين، وصلحت بذلك أحوال مكناسة. [12]

عرفت المدينة بداية عهد جديد مع المولى إسماعيل الذي اتخذ منها عاصمة له، بعد وفاة أخيه المولى رشيد الذي استقر حكمه بفاس سنة 1672م، وأقام بها سياسة تعمرية كبيرة حيث جند السكان والعبيد والأسرى لبناء المدينة، وإحاطتها بأسوار عالية وضخمة تحمي المدينة من هجمات خارجية، وأبواب وقصبات، كالقصبية الكبرى ومسجدها وباب منصور العظمى.

شهدت المدينة بعد وفاة المولى إسماعيل، على سن 55 سنة (1727م)، اضطرابات سياسية على إثر الخلاف بين أبناء المولى إسماعيل، إلى أن تدخل المولى عبد الرحمان الذي أرجع الأمور إلى نصابها، فأتم البناء الذي شيده المولى إسماعيل وأضاف مسجد البر الدائم وضريح سيدي بنعيسى وقصر الدار البيضاء الذي اتخذ مقر له. ومع اقتراب الإعلان على الحماية الفرنسية أي في سنة 1910 تدهور حال المدينة حيث الأسوار نصف مخربة، والطرق غير معبدة، وهزالة المناطق الخضراء، إضافة إلى منازل مهدمة يسكنها العمال والحرفيون الذين يعملون في الصناعة التقليدية بالمدينة. [13]

4. التطور العمراني لمدينة فاس منذ عهد الأدارسة:

انطلقت مدينة فاس لمؤسسها إدريس الأول، وهي تملك، منذ البداية، وسائل واليات للنجاح، حيث كانت تحت حكم عاهل ذكي ونشط، هو إدريس الثاني، بعدما لم يكن لإدريس الأول الوقت الكافي لتنمية المدينة، لأنه كان مطالباً بالتنقل باستمرار للمحاربة وتوسيع حدود الدولة الإدريسية، وقد خصص إدريس الثاني ثلاث سنوات لتنظيم المدينة والمناطق المجاورة، ثم بعدها خرج خلال سنة 812-813م، للحرب في اتجاه الجنوب، فسيطر على مدينتي نفيس وأغمات بالأطلس الكبير، وتمكن من إخضاع قبائل مصمودة، واتجه نحو الشرق، حيث تمكن من فتح مدينة تلمسان، وخلال بضع سنوات استطاع السيطرة على مناطق عدة وتكوين مملكة حقيقية مترامية الأطراف، سماها المرشال ليوطي من بعد "المغرب النافع". [14]

استفادت المدينة من هذا التوسع، فأصبحت محط أنظار المهاجرين، فوصلتها عام 818/202م، جماعة مهمة من المهاجرين القرطبيين، بلغ عددهم 8000 أسرة كما يقول روض القرطاس، حاملين معهم إلى مدينة فاس تجربتهم في الحياة الحضرية، وتقنياتهم التقليدية في الفلاحة والبناء والصناعة التقليدية، كما أنه في سنة 825/210-826م، وفدت جماعة أخرى من المهاجرين من الفيروان، بلغ عددهم 300 أسرة، فحملت المدينة العالية اسم الفيروانيين. [15]

بدأت المدينة في استقبال أفواج المهاجرين من مناطق مختلفة ولأسباب متعددة، منذ بداية التشكيل والتطور، حاملين معهم تقنياتهم ووسائل العيش الحديثة بالنسبة للسكان الأصليين، لينطلق معهم التطور والازدهار العمراني والسوسيو اقتصادي لمدينة فاس القديمة. [16]

تقاسم أبناء إدريس الثاني 828/213م الإمبراطورية الإدريسية بعد وفاته، ورغم ذلك استمرت المدينة في التطور والنمو، لأنها كانت تلعب أدواراً اقتصادية وحضارية ودينية، وكانت المدينة الكبرى الوحيدة بالمنطقة، فطنجة وسبتة كانت بعيدة، ومكناس لم تشكل آنذاك سوى قرية ضخمة، فكانت فاس ملتقى الطرق الاقتصادية داخل مجال غني، وتعتبر أفضل مركز تجاري وثقافي بفضل الفيروانيين والقرطبيين. (خريطة رقم 2)

14 روجي لوطنو. (1996): فاس قبل الحماية. الجزء الأول. دار الغرب الإسلامي. ص 75.
15 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 76
16 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 77
17 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 82-83
18 الحسن بن محمد الوزان الفاسي. (1983): مرجع سابق. ص 220-221

11 جمال حيمر. (2006): المرجع نفسه. ص 170

12 جمال حيمر. (2006): المرجع نفسه. ص 174

13 عبد الرحيم الودغيري. (1988): مكناس في عهد الاستعمار 1912-1956 - ملامح من مدينة مكناس-أصولها... تغيراتها... حالاتها الاجتماعية والسياسية.

الطبعة الأولى. ص 13-15

شهدت مدينة فاس في عهد كل من المرابطين والموحدين فترة طويلة من الازدهار، لم تعترضها سوى المجاعات والفن خلال سنوات 1224م-1232م [23] ترتبط فاس بعهد المرينيين، الذين ساهموا في إنشاء فاس الجديد، والمدارس...، وحاولوا تغيير الوضع بإنشاء مدينة جديدة لاستقرار السكان والجنود، فكانت المدينة التي بناها بنو مرين إدارية تقيم بها قبيلة بني مرين التي استولت على الحكم، وبالتالي فاستقرارهم بفاس ساهم في إحداث عدة تغييرات، تمثلت في التطور العمراني، انطلاقاً من تشييد العديد من الجوامع الكبرى، والأحياء المختلفة كحي القصر وحي النصاري، لتصبح فاس الجديد مدينة جامعة لأجناس مختلفة [24].

5. شهدت فاس تطوراً مهماً خلال عصر السعديين والعلويين

تعتبر المصادر المكتوبة حول تاريخ التعمير بالبوادي المغربية على العموم وبوادي فاس على وجه الخصوص نادرة، ولا تلقي إلا ضوء ضئيل على الحياة فيها، الأمر الذي يجد من خلاله الباحث عدة صعوبات تفقده شجاعة البحث، هذا ويمكن الاعتماد على بعض المصادر التقليدية التي تعتبر غير كافية في الإحاطة بالمجال المدروس، وبالتالي يجب تدعيمها بالعمل الميداني والكشف المباشر للمنطقة. تجدر الإشارة إلى أن المنطقة شهدت دخول الأندلسيين الذين ساهموا في عدة تحولات، خاصة المرتبطة بالفلاحة، وإدخالهم للتقنيات الأندلسية في السقي والتشجير وغيرها، مما أثر في الدينامية الفلاحية رغم بطئها، ومن المحتمل أن ذلك أثر على الدينامية العمرانية وتحفيز السكان على الاستقرار لفترة من الزمن [25].

يلاحظ أن مجال البادية كان شاسعاً لدرجة أننا لا نكاد نجد مدينة أو مركزاً بارزاً شمال وجنوب فاس، إضافة إلى ضعف انتشار القرى والمدارس، حيث إنها لا تجمع إلا مائة عائلة تقريباً، إضافة إلى أن القرى في البادية عموماً متصلة فيما بينها، وفيما بينها وبين الأرض وكل ما تضمه من شجر وحرث...، مما يبين اهتمامات السكان بالبادية، حيث حياتهم تدور حول الأنهار والغابات ومناطق الرعي...، وقد عرفت البادية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجري استقطاباً مهماً للسكان، مكنهم من استغلال وتملك الأرض، لكن هذا لا يعني تملك جميع الأراضي ببادية فاس، بل تملك نسبي، حيث أن الترحال والتنقل كان يميز السكان في هذه الفترة؛ بحثاً عن ظروف أحسن للعيش، أو هرباً من آثار الحروب والنزاعات أو الترحال الفصلي [26].

تميزت التجمعات السكانية في هذه الفترة، بكونها منازل على شكل مجموعات لا تبعد الواحدة عن الأخرى، لكن عدد المنازل داخل كل مجموعة يبقى صغيراً، مع العلم أن حجم القرى يختلف حسب مقومات وخصائص الأرض القريبة منها أو حسب قربها أو بعدها من فاس. وقد حاول نوان D.NOIN البحث عن سؤال حجم وشكل القرى بالبوادي المغربية؛ فتوصل إلى أن السكن في غالبية متجمع في قرى بسيطة، لكن كثافة السكن تختلف من مجال لآخر، وشكل القرى ومقوماتها لا تختلف كثيراً، فهي تضم في غالبيتها المسجد، والسوق الذي تحيط به المنازل بشكل عشوائي، هذه الأسواق يتم بناؤها بمواد محلية تمثلت في الحجارة والطين والحشائش، مما يجعل هذه المنازل بسيطة في بنائها ويعرضها للهدم بفعل عوامل طبيعية كالأمطار التي لا يقاومها البناء إلا بصعوبة [27].

عرفت المدينة اضطرابات في عهد السعديين والدلائيين، أصبحت من خلالها في عام 1651م، في يد أحد شرفاء تافيلالت هو مولاي محمد بن الشريف العلوي، في الوقت الذي كان مولاي رشيد يقترب من المدينة قادماً من المغرب الشرقي، فكانت المدينة تعيش تحت وطأة الصراع بين الثوار الذين تقاسموا واحدها بها خراباً بجهات مختلفة، لكن بعد ذلك تمكن مولاي رشيد من السيطرة على مدينة فاس وإخضاع الثوار المتنازعين بها، وبعد ما تمت له البيعة، أسبغ على علمائها وفقهائها جزيل العطاء، وبسط لهم جناح الرحمة، وبعد موت مولاي رشيد، استمر مولاي إسماعيل ومولاي عبد الله، في حكم وتنظيم المدينة، فزاد تطورها وغناها العمراني والاقتصادي والثقافي، لكن هذا لا يعني خلوها من الاضطرابات والأزمات الاجتماعية والسياسية التي عصفت بها خلال هذه الفترة. وقد ساعد سيدي محمد بن عبد الله على نهضة فاس، بعدما شرع في ترميم انقاضها وإضعاف وإقصاء قبيلة الأوداية الطائشة [28].

جاء المرابطون، بعد صراع حول السيطرة على مدينة فاس الكبرى، من الصحراء الغربية في منتصف القرن الحادي عشر وانتشروا بالمغرب، وبعدما أسس يوسف ابن تاشفين مراكش سنة 1062/454م، استولى على فاس عام 1068/462-1069م، بعد محاولة فاشلة، فقام بتخطيط الأسوار الفاصلة بين عدوتي الأندلس والقرويين (خريطة رقم 3)، داعياً إلى توحيد المدينة ككل، رغم المعارضة التي واجهته من قبل السكان، والتناقض الموجود فيما بينها، وفيما بعد تبين بأن هناك حاجة إلى مركز يوحد العدوتين، فوقع الاختيار على وسط مدينة القرويين، كمركز تاريخي عريق، وبهذا أصبحت فاس مدينة كبرى موحدة وأكثر قوة [19].

"وعندما مات إدريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية، وهي أقل ضخامة من الأولى وتقع أيضاً على مجرى النهر. ونمت المدينتان مع مرور الزمن حتى لم يعد يفصل بينهما سوى ممر صغير.... لكن لم تمر مائة سنة على تأسيس فاس حتى تكونت أحزاب متباينة... فأصبح لكل واحدة منها أمير، وقامت بينهم حروب كثيرة استمرت مائة عام" [20].

يظهر أن فاس لم تعرف طوال حكم المرابطين اضطرابات خطيرة؛ مما سمح لها بالنمو والتطور بسرعة، لكن عندما حكم الموحدون المغرب تأثرت مدينة فاس كثيراً بضرباتهم، ففي عام 1145/540م حضر عبد المومن الموحد لمحاصرة فاس التي تمكن من السيطرة عليها بعد عمليات تخريبية إثر المقاومة التي واجهتهم من طرف المرابطين. عكس ما قام به المرابطون، فالموحدون اتخذوا من مراكش عاصمة لهم، وجعلوا من فاس إحدى القواعد العسكرية المهمة.

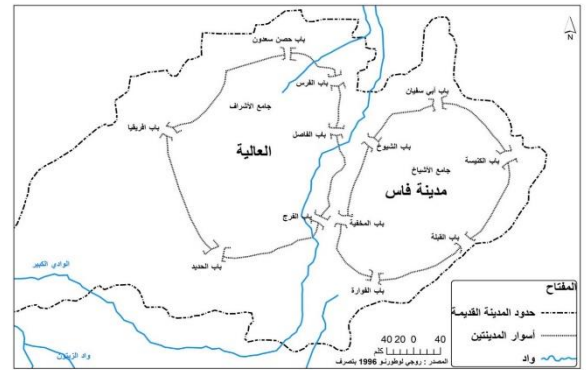
خريطة 3: المدينتان الأصليتان حسب ليفي بروفنسال

جاء المرابطون، بعد صراع حول السيطرة على مدينة فاس الكبرى، من الصحراء الغربية في منتصف القرن الحادي عشر وانتشروا بالمغرب، وبعدما أسس يوسف ابن تاشفين مراكش سنة 1062/454م، استولى على فاس عام 1068/462-1069م، بعد محاولة فاشلة، فقام بتخطيط الأسوار الفاصلة بين عدوتي الأندلس والقرويين (خريطة رقم 3)، داعياً إلى توحيد المدينة ككل، رغم المعارضة التي واجهته من قبل السكان، والتناقض الموجود فيما بينها، وفيما بعد تبين بأن هناك حاجة إلى مركز يوحد العدوتين، فوقع الاختيار على وسط مدينة القرويين، كمركز تاريخي عريق، وبهذا أصبحت فاس مدينة كبرى موحدة وأكثر قوة [21].

"وعندما مات إدريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية، وهي أقل ضخامة من الأولى وتقع أيضاً على مجرى النهر. ونمت المدينتان مع مرور الزمن حتى لم يعد يفصل بينهما سوى ممر صغير.... لكن لم تمر مائة سنة على تأسيس فاس حتى تكونت أحزاب متباينة... فأصبح لكل واحدة منها أمير، وقامت بينهم حروب كثيرة استمرت مائة عام" [22].

يظهر أن فاس لم تعرف طوال حكم المرابطين اضطرابات خطيرة؛ مما سمح لها بالنمو والتطور بسرعة، لكن عندما حكم الموحدون المغرب تأثرت مدينة فاس كثيراً بضرباتهم، ففي عام 1145/540م حضر عبد المومن الموحد لمحاصرة فاس التي تمكن من السيطرة عليها بعد عمليات تخريبية إثر المقاومة التي واجهتهم من طرف المرابطين. عكس ما قام به المرابطون، فالموحدون اتخذوا من مراكش عاصمة لهم، وجعلوا من فاس إحدى القواعد العسكرية المهمة.

خريطة 3: المدينتان الأصليتان حسب ليفي بروفنسال



25 محمد مزين. (1986): فاس وبدايتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي.

الجزئ الثاني. الطبعة الأولى. ص 381

26 محمد مزين. (1986): المرجع نفسه. ص 382-383

27 محمد مزين. (1986): المرجع نفسه. ص 384-385

28 روجي لوطنو. (1996): مرجع سابق. ص 125-132

19 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 82-83

20 الحسن بن محمد الوزان الفاسي. (1983): مرجع سابق. ص 220-221

21 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 87-88

22 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 95-102

23 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 87-88

24 روجي لوطنو. (1996): المرجع نفسه. ص 95-102

ساهم المولى عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ في إقامة بنايات داخل القصر تشرف على فاس الجديد، وإقامتي الصيف المدعوتين الدار البيضاء ودار البيضاء، ومنذ قدوم العلويين فقد ارتفع عدد الصحراويين بشكل كبير؛ وذلك بالنظر إلى أصل ملوك الدولة العلوية في الجنوب الشرقي للبلاد.[29]

خاتمة:

شهد مجال سايس تحولات سوسيوإقليمية على فترات تاريخية مختلفة، حيث انتقل المجال من انتشار للقرى والرحل، إلى مدن ومراكز تاريخية مهمة، وتعتبر مدينتي فاس ومكناس من الأقطاب الكبرى التي تُوَظَر مجال هضبة سايس عمومًا، لكونها مدن تاريخية عريقة ساهمت في تعميم المنطقة وتحولها على المستوى العمراني والسوسيواقتصادي.

ساهمت السبورة التاريخية التي ميزت هضبة سايس عمومًا، ومدينتي فاس ومكناس على وجه الخصوص، في التطور العمراني ونشوء مراكز قروية وحضرية بأحجام مختلفة موزعة بشكل متوازن على المجال، لكن الهجرات التي شهدتها المجال على فترات متباعدة انعكست سلبيًا على التوزيع المجالي للوحدات السكنية، حيث فضل أغلب السكان التوجه صوب المدينتين العريقتين، مما سيفضي إلى تدفق عمراني كبير سيترتب عنه أحياء هامشية ضخمة تفقد للتجهيزات الأساسية، وتغيب فيها الشروط والضوابط العمرانية الأساسية.

كان للعامل التاريخي دور أساسي في التحول المجالي لمدينتي فاس ومكناس، حيث انتقلنا إلى مدن ضخمة تحتل مراتب متقدمة على المستوى الوطني، وتشهد تدفقًا عمرانيًا مهمًا أفضى إلى تطور مراكز ضاحوية أصبحت تشكل اليوم وحدات مجالية ضخمة تدور في فلك المدينتين.

قائمة المراجع:

- [1] جمال حيمر. (2006): مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، دراسة في التاريخ السياسي والعمراني، مكناس: جامعة مولاي اسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- [2] الحسن بن محمد الوزان الفاسي (1983): وصف إفريقيا، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية.
- [3] خالد العلوي (2021): التحولات المجالية وإشكالية التهنية: مقارنة مقارناتية للمدين الضاحوي بمدينتي فاس ومكناس، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا. جامعة الحسن الأول سطات.
- [4] روجي لوطورنو (1996): فاس قبل الحماية، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي.
- [5] عبد الرحيم الودغيري (1988): مكناس في عهد الاستعمار 1912-1956 ملامح من مدينة مكناس "أصولها - تغيراتها - حالاتها الاجتماعية والسياسية"، الطبعة الأولى.
- [6] العربي اكينج (2005): انفتاح المغرب على السوق الدولية في القرن التاسع عشر وانعكاساته على تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبادية المغربية، نموذج قبائل هضبة سايس: مطبعة انفو- برانت.
- [7] محمد مزين (1986): فاس وبدايتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى.

د. خالد العلوي

دكتور في الجغرافيا، جامعة الحسن الأول بسطات
kh.elalaoui@yahoo.fr



د. جواد البوردو

دكتور في الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء
حاصل على الدكتوراه في الجغرافيا
تخصص جغرافية بشرية.



د. حميد ختراني :

دكتور في الجغرافيا، جامعة الحسن الأول - بسطات.
دكتوراه في الجغرافيا بعنوان "التخطيط المكاني والبيئة و التنمية المستدامة"، جامعة الحسن الأول، سطات - المملكة المغربية.



hamid.khatrani23@gmail.com